صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
توعوية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات:

Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

صدى الحرية | العدد 84 | الجمعة 31 | تشرين أول | 2014

مخيم عابدين

لماذا قتلتم القطط؟!

حركة الحرقلة..

الأثرياء الجدد

بين الصحافة..

سيد الشهداء

دماء ودموع

لماذا قتلتم القطط؟!

انشغال الناس بالحديث عن واقعهم المعيشي وما آلت له من مأساوية وصلت بالبعض حد اليأس، ما دفع الكثيرين للهجرة مخاطرين بأرواحهم في سبيل البقاء أحياء بعيداً عن شبح الموت الملوح كل يوم، ظاهرةٌ كوت بنارها مئات البيوت السورية، من بقي بدأ يفتش عن الثغرات في المجتمع والثورة في ارتكاسة فكرية لا تهدف إلا للهروب ولا تدلل إلا على انعدام التوازن لعدم تمكنهم من "الفرار"، رغم أن المؤشرات تدل على سقوط "نظام" الأسد وما بقاؤه إلا مترنحاً بإرادة دولية.

الصمت الطويل على ممارسات الأسد استمر حتى اللحظة وأخذ أشكالاً متعددة ليس أولها الهجرة، غير أن الخروج من هذه الحالة ربما بدأت تدريجياً ولدينا ما يبرهن صحة هذا الكلام ففي إحدى الحافلات يعلو صوت السائق:

((لك خربوا البلد و هدوا البيوت هدوا حرستا و دوما و شردوا أهلها قتلولي مرتي وبنتي .. الله لا يوفقك يا بشار الأسد الله ينتقم منك أنت و عصابتك الله يخلصنا منكون عن قريب)).

سبق هذا الكلام بدقائق مشادة كلامية بين السائق وأحد الركاب الذين شتموا السائق في أهله لأنه لم يقف في المكان المطلوب بعد أن تباهى أنه من "المخابرات" وأنه أخذ رقم الحافلة وسيخرب بيته ونزل.

البرهان الثاني ما يعيشه الإعلام الموالي للنظام من انفصام عن الواقع، وبحسب ما أوردته إحدى الصفحات في موقع "فيسبوك"، فإن محافظة دمشق قامت بوضع كميات من الطعام المسموم في حاويات العاصمة حيث قامت مئات من القطط بأكل الطعام، وانتشرت أجسادها الميتة في حدائق وأحياء العاصمة.

الآراء المنشورة على الصفحة تعبر بدورها عن غياب ضمائر الموالين الذين أرعدوا وأزبدوا من أجل "القطط"، متناسين المئات الذين قضوا بالكيماوي والبراميل، وإن لم تخل من السخرية والتهكم والنقد، حيث كتب أحدهم "ليكون بعلم السيد محافظ دمشق في ناس معترة عم تاكل من حاويات القمامة"، وكتب آخر "إذا البشر مافرقت معن، رح يسألو عالقطط".

ومن الواضح حالة التذمر والرفض وإن بصورةٍ خجولة لما تقوم به حكومة الأسد تبينها التعليقات على طلب الاحتياط لخدمة العلم، وفتح الحديث عن السرقات التي حصلت بعد دخول ميليشيا الأسد إلى "الدخانية" التي يقطنها موالون للأسد.

ميدانياً: لا يكاد يخلو أسبوع من كرٍّ وفر، ومن مجزرةٍ مروعة ترتكبها قوات النظام، ففي هذا الأسبوع ارتكبت مجزرة بحق 65 مدنياً أغلبهم نساء وأطفال في مخيم النقير للنازحين بقرية النقير في خان شيخون ببراميل متفجرة حارقة.

لدينا قناعة أن تاريخ الثورات تاريخ خطوات يجب أن نعيشها لا أن نتجاهلها مستسلمين، وضعف الثورة في أنها حصرت نفسها في مظاهر الحالات التي واجهتها دون أن تصل إلى بواطن كل حالة لتجعل منها قضية تسعى إلى كسبها.

والتركيز على السلبيات في مقابل التوقف عن العمل لكبح جماح الفاسدين هو عيب البعض منا ممن لم يتحملوا مسؤولياتهم اتجاه ما يجري، فالهروب هو هزيمة لشخص الهارب، واختيار المستسلمين لا يوازي اختيار الأحرار، ومن الطبيعي أن تطول مدة الامتحان إذا تأكدنا أن فيها ولادة أمةٍ أرادها الله تعالى نموذجاً حين قال في كتابه:

((كنتم خر أمةٍ أخرجت للناس)) ولم يتوقف البيان الإلهي عند هذا الحد بل قال تعالى: ((تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)).

ما نرغب أن نختم به بعد الآية الكريمة أن دورنا لم ينته، ويجب أن نعيش للثورة دون أن نستسلم للفشل لأننا مقتنعين أن الثورة لا تزال مستمرة وأننا يجب أن نعيشها كأننا في بدايتها حتى تحقق أهدافها.

الأثرياء الجدد من هم؟

مطالعة سريعة لما عايشناه قبل الثورة وتقسيمه إلى مرحلتين مرحلة الأب والابن، يحيلنا إلى حالة من الركود على المستوى الاقتصادي ساده الخوف من الحديث في هذا الجانب لارتباط معيشة الناس بالقرار السياسي وما يشكله الحديث ويعنيه من قبولٍ أو رفض، ولقد اعتاد السوريون على قاعدة ازدياد فقر الفقراء وازدياد أموال الأغنياء، حيث كانت الفئة الثانية تسلبهم لقمة عيشهم، لكن بطريقة غير مباشرة عبر فسادٍ التهم أكثر من 40 % من الناتج المحلي الإجمالي، حيث كانت ثمار النمو تقع في يد 20 % من المجتمع ويبقى السواد الأعظم من السوريين مهمشاً اقتصادياً واجتماعياً.

ولتأتي بدايات حكم الأسد الابن الذي عمل نظامه قبيل الثورة بسنواتٍ على إيهام الناس باقتراب حالة الانفراج من خلال إصداره بعض المراسيم –المضللة– ذات الصلة بهذا الموضوع، ولعل ظهور العديد من الشركات التجارية الخاصة العاملة بمجال التأمين إضافةً لعددٍ من المصارف الخاصة الربوية والإسلامية أوحى بإمكانية الانفتاح الاقتصادي الذي يتبعه بالضرورة حالة اجتماعية أفضل تقود إلى انفتاح سياسي بعيداً عن سلطة "الأمن".

خلف الكواليس الصورةُ تبدو مختلفة تماماً، فقد وزعت التركة بين آل الأسد فما كانت تلك "المراسيم" إلا ستاراً لظهور مافية جديدة على المسرح السوري يديرها "رامي مخلوف".

ومن الطبيعي أن الثورة أضرت بتلك الكيانات التي تشكلت كستارٍ تغطي نهب البلاد لحساب آل الأسد.

مع الزمن تغيرت خارطة توزع الثروة، حيث ظهرت طبقة جديدة اعتمدت على الجريمة لبناء ثروتها، ما يهيّئ المجتمع لاحقاً لظهور "مافيا" المال حيث تتركز بيدها الثروة والقوة والجريمة في آنٍ واحد.

يمكننا القول هنا: أن ارتباط المجتمع بالحياة الاقتصادية يبدو أنه لم يكن ملحوظاً بهذا القدر الذي نراه اليوم، فالعامل المالي أخذ يرسم مجتمعاً على أنقاض القديم، مع ظهور ملامح طبقة من الأثرياء وبروزها في الواجهة، حتى الثورة لم تسلم من تلك "العلقات"، بل على العكس سببت عاملاً من عوامل الفشل والتأخر، ترافق هذا مع تغير في معالم الهرم الاجتماعي، وتشكلت طبقة جديدة من الفقراء.

خطر ينبغي التنبه له وهو أن السنوات الماضية كشفت أن المجتمع السوري منخور بالفساد حتى العظم، وأمراضه خرجت دفعةً واحدة، ما أثر على إعادة تركيب شكل المجتمع وطبقاته الاقتصادية والاجتماعية.

هناك من الأغنياء وأصحاب الأرزاق من ضاعت ثروته الصناعية أو الزراعية أي "ثروة فاعلة في القطاعات الإنتاجية"، وانزلق غالبية هؤلاء إلى طبقات الفقر، في حين تشكلت طبقة جديدة بنيتها قائمة على السرقة والجريمة.

ومحدثو النعمة سواء من الشبيحة أو المتسلقين على الثورة، يمكن اعتبارهم عبئاً آخر على المجتمع والاقتصاد في آنٍ واحد، حيث إنهم الفئة التي اعتادت تكوين ثروتها عبر الجريمة، وهو ما يعني بناء مجتمع كسول ومجرم، يحصل المال بطرقٍ غير شرعية وقوة السلاح.

ورغم عدم وجود إحصائيات دقيقة تحلل التقسيم الجديد للمجتمع السوري، لكن عدم وجود الأرقام لا ينفي حقيقة أن البلاد في المرحلة القادمة ستكون قائمة على أساس قانون الغابة حيث البقاء للأقوى، والقوة ستكون متمركزة في يد مافيات السلاح والجريمة.

ويمكن الاستدلال إلى الأرقام حسب ما صدر عن واقع الفقر، حيث قالت "الإسكوا" إن 90 % من السوريين سينزلقون إلى طبقة الفقر بحلول العام 2015.

وهنا ينوه خبير اقتصادي إلى أن معدلات الفقر كانت في العام 2010، 14 % فقط، وهذا ما يعني أن محدثي النعمة إلى جانب الأغنياء هم 10 % من المجتمع، لكنها نسبة كافية لإفساد المجتمع.

سيد الشهداء

صارت الحرب جزءاً من تاريخ البشرية في عصرنا الحاضر على الرغم من الحديث ليلاً ونهاراً عن السلام العالمي من قبل قوى عالمية عظمى هي نفسها شنّت وما زالت تشنُّ أشرس حروبها على العالم الإسلامي، ولم يعد سرّاً احتلالها له هنا وهناك، بل السر الذي لا يمكن فهمه حقا هو قيام بعض المسلمين بمحاولة بيان أن الإسلام لم يشرع الحرب، وإنما شرعها للدفاع فقط، وهذا رأي يضعف حماسة المقاومة عند المسلمين، ومن المعلوم أن الإسلام أقر مشروعية الحرب بل وجوبها في حالات معينة نظرا إلى أنها ضرورة من ضرورات التمكين والدفاع عن الحق. قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾إننا نعيش في عصر بدأنا نسمع فيه أصواتا ترفع من هنا وهناك مفادها أن الإسلام دين العدل والسلام، وليس دين الحرب والانتقام، نسمع هذه الأصوات من أناس شغفوا بشهوة المناصب وفي جمع متاع الدنيا، إنهم تجار المبادئ، والإسلام بريء منهم. حقّاً إنَّ الإسلام دين العدل والسلام، وليس في مقدور أحد إنكار ذلك، ولكنه دين الحرب والانتقام أيضا إنْ لم يجد طريقا سوى ذلك لتمكين الحقّ، وحفظ كرامة المسلم، وضمان عزته وشخصيته الإسلامية، وإذا قارنّا بين مفهوم الجهاد في الإسلام ومفهوم الحرب لدى العالم الغربي المتحضّر يتضح لنا أن الحرب في المفهوم الغربي هي (الإبادة الجماعية والمصالح المادية) وفي ذلك يقول وزير العدل الأميركي الأسبق (رامزي كلارك) معترفاً بما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية من الجرائم والأعمال غير الإنسانية في حروبها ضد الشعوب الأخرى، يقول بعد استقالته من وزارة العدل الأمريكية: ((في العراق قتلنا مئة وخمسين ألف شخص في اثنين وأربعين يوماً فقط من القصف الجوي، كانت المحصلة النهائية لحربنا في العراق حرب إبادة مليون ونصف مليون إنسان نصفهم كانوا أطفالا، وفي فيتنام قتلنا مليون شخص، واستخدمنا التكنولوجيا ضد الأحياء، في كوريا الشمالية وبهدف تدميرها قتلت القوات الأمريكية ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين شخص، ثلاث ملايين ونصف مليون كانوا أناسا مدنيين عزلا)) هذه هي السياسة الأمريكية الخارجية، الفرق بين مفهوم الحرب في الإسلام وبين مفهومها عند الآخرين سواء في النظرية أو في الواقع واضح، فالمسلمون ملتزمون بالأخلاق الإسلامية في حروبهم التي كان الهدف منها إعلاء كلمة الله ورفع الظلم عن المستضعفين والحيلولة دون الحكام الظالمين وضمان حقوق المسلمين وأهل الذمة في حياة حرة كريمة تضمن للجميع حريتهم، في حين كانت الحروب الأمريكية حروب إبادة جماعية هدفها المصالح، تماما مثل حروب الأنظمة الديكتاتورية ضد شعوبها.

وقد أجمع الفقهاء الأقدمون على أن الحرب فرض على المسلمين مستدلين بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ودلالة الآية قطعية، ولا خلاف في ذلك. مع ذلك ذهب كثير من فقهاء العصر على وضع فريضة الجهاد حتى تجرأت على الأمة الأعداء وتجرأ عليها الحكام الظالمون، وكان ذلك خوفا من الأنظمة الديكتاتورية التي تخشى من أن يتبع إعلان مشروعية الجهاد شيء من الإضرار بسلطة الحكّام،

ومن لطيف الإشارات في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يبايع الحرّ فقط على الجهاد من دون العبيد، وبذلك كان الجهاد فريضة تختص بالأحرار لا يُجبر عليها العبيد، قال ابن رشد القرطبي: "لا أعلم في هذا خلافا"، والحرية تُشترَط لِمَا رُويَ من أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع الحرَّ على الإسلام والجهاد، ويبايع العبد على الإسلام دون الجهاد. والجهاد يكون بالنفس وبالمال وبكلمة الحق في وجه السلطان الجائر، وفي مذهب الحنفية نقرأ هذا التعريف للجهاد ((هو بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عزَّ وجلَّ بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك)) وإنْ سألتَ في زماننا أصحاب العمائم الكبيرة الصامتة من هو سيّد الشهداء؟ سيقولون لك: "هو حمزة بن عبد المطلب عليه رضوان الله، ثمَّ يغضّون الطَّرفَ عن بقية ما يكتمون من العلم" فاسمعوا مني حديث رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث الشريف: ((سيّدُ الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب، ثمَّ رجلٌ دخل إلى إمام فأمره ونهاه)) أي دخلَ إلى سلطان جائر فقالَ عنده كلمة حقّ.

هل وصلت الإشارة، أمْ أنَّ كثيرين على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه؟!!!!.

حركة الحرقلة..
نظر وصبر سوري استثنائي

شام صافي

ربما يكون عنواناً غريباً ولكن " حركة العرقلة" هي أشبه ما يكون بتلك الجملة الشهيرة على لسان رايتس "الفوضى الخلاقة" كانت هذه الجملة من أشهر ما قالته ولم نعيه على أرض الواقع حتى الآن .. أما المصطلح السابق "حركة العرقلة" فهو مصطلح يشابه ذاك في التناقض الفعال بغرابة وهو ما يدل على الحركة التي تتميز بها دمشق هذه الأيام في عهد النظام والدولة المنهارين.

قد يجد القاطن في دمشق حركة بشرية لا بأس بها دون أن يعرف حقيقة هذه الحركة، الحركة تدل على الحياة، على الحيوية، على النشاط والاستمرار، على البناء ،، على دولة حية وشعب حي بقدر حركتهم وحيويتهم، أما أن تكون الحركة تابعة للعرقلة كما يشير العنوان، فهو جديد وغريب..

الحركة في دمشق هي حركة العرقلة التي فرضها النظام المتضارب المتناقض المنهار، الدولة فقدت صوابها، وتأتي الأوامر من مجانين حقيقيين، لو اطلعت على القرارات التي يتم تنفيذها لصدقت بأن من يدير بقايا الدولة مجانين بحق. لا يمكن أحدكم تخيل أن أكثر من نصف الناس التي تراها في الشوارع لا تنجز عملاً بنّاءً ، إنما تقوم بأعمال روتينية قد تعود لها أكثر من مرة لأسباب تافهة فرضتها الدولة بحماقتها، والغرض أظنه إعلامي للإيحاء بوجود حركة لكنها في الحقيقة حركة فارغة واستمرار في تمزيق الناس وإفقادهم كل المعنويات والقدرة على إتمام الحياة.

العرقلة التي تفرض في كل ناحية ومنحى تجعل الشخص المضطر لشيء معين يتحرك أضعافاً مضاعفة عن الحركة المطلوبة في الحالات العادية والطبيعية.

ولو أن الأوامر كانت طبيعية لما وجد المواطن حاجة لثلاثة أضعاف حركته الحالية وبذلك ينخفض مستوى الحركة اللازمة.

الحركة الموجودة في دمشق حركة فارغة من الإنجاز وليس لنتيجة منطقية أو هدف منطقي، بل إن أمراً ما في منحى ما يجعل الناس خارج منازلها لساعات طويلة بدل أن تتيسر أمورهم، العرقلة هدفها الحركة وقتل ما تبقى من قدرة تحمل ووقت وتمريره فقط.

أوامر الدولة باتت مضحكة للغاية، غبية جداً، والأبرز أن أحداً لا يمكنه تجاوزها خوفاً ورعباً حتى لو كان منهم. ما يهدف له هذا المقال إثبات فكرة أن الحركة في دمشق ناجمة عن العرقلة ليس إلا، ليس ناجمة عن حيوية وبناء وعمران ، بل والدولة في قمة فسادها لم تعد تخجل من حماقات لا يمكن لعاقل أن يصدقها. ، الدولة والنظام منهار والاقتصاد منهار أكثر، الأزمات متفاقمة جداً ولعلنا نصل إلى مستوى متدني للغاية لا ندري ماذا يعقبه في ظل الصبر والمحاولات المستمرة لانتشال ما تبقى من خدمات للناس وبنى أساسية لا يمكن التخلي عنها. ورغم تلك الحركة فلا إنجازات حقيقية والحركة مهدورة كلها على ما لا يُذكَر.

والإشارة إشارة خطر باللون الأحمر. يفضل في هذه الأثناء التأسيس لبدائل حال الانهيار التام ولا أدري متى يحصل طالما أن الصبر السوري مطاطة لا تنقطع!!!!

عصبة القتل

انطردوا الآن من الجدول ..
من مُرِّ بطشكم ملَّ الحنظل
من حلاوةِ الشهادةِ صِرنا أجمل
فانطردوا الآن من الجدول....
نموتُ وتحيا أمةٌ، وتعيشُ حياةً أطول
ويفنى حكمُ البهائمِ فيها...
فتأكلُ من الحريةِ ولا تُأكل
فانطردوا الآن من الجدول....

في بلادي عصبةٌ
حرقوا اليابسَ والأخضر
دخلوا قريتنا بعتادٍ
لا آخرَ فيهم أو أول
قتلوا الطفلة والنسوة
لم يسلم منهم حتى الكُهل
اقتحموا بيوتَ الله بأيديهم
في محرابهِ القرآنُ كان يُرتل

فانطردوا الآن من الجدول...
طواغيتَ عصرنا موتوا
فلا يوجدُ عنكم من يسأل ...!
سيذكرُ الحاضرُ والماضي
ويقول فيكم المستقبل
بشارٌ طاغوتُ الشامِ
بشارٌ قاتُلنا الأول....
فانطردوا الآن من الجدول .

بين الصحافة .... ورجال المخابرات

صليبة سورية تستغيث

ل.ن

ليست فرعاً أمنياً، ولا سجناً للأحداث، هي جريدة يومية، عنونت نفسها بالسياسية، مع ما فيها من صفحاتٍ للاقتصاد والثقافة والرياضة والشؤون المحلية، كان لها السبق في أن تكون رئيس تحريرها امرأة، لأول مرة، بالنسبة لصحيفة حكومية، ويُقال أن الأمن أو المخابرات هو من أتى بها، ولازال كثيرون يذكرون اتصال رئيس التحرير تلك (سميرة المسالمة) مع قناة الجزيرة، والذي سبب فصلها من عملها.

بعد مرور عامين تقريباً، يبدو الحديث اليوم، أكثر دونية، إذ أن رئيس التحرير الحالية، ورغم تشابه فرص حصولها على المنصب مع زميلتها السابقة، إلا أنها استطاعت فرض سلطتها بشكلٍ أكثر غباءً وتجبراً.

مارست تلك الجريدة، دوراً بارزاً، ولا تزال، منذ بداية الأحداث، وخصها رأس النظام بحوارٍ طويل، لكنها لم تتوقف هنا، بل استغلت اتصالها مع أجهزة المخابرات، لتوريط العديد من الصحفيين، بين اعتقال أو استهداف مباشر، لم يكن الصحفي الشهيد مصعب العودة الله، الوحيد بينهم، وإن كانت قصة استشهاده الأشهر.

الإساءة هناك لم تقتصر على إقصاء المعارضين، وتهميشهم، بل امتدت حد إلغاء أي حرية للفكر أو التعبير، وإن لم يتجاوز كل ذلك، حدود النظام وأفكاره، حتى أن مواقع الكترونية نشرت مواداً صحفية وتحقيقات، رصدت تفاصيل، لم يسبق أن عاشتها أي مطبوعة، قبل هذه الجريدة.

إدارة الجريدة، على مدى سني الأزمة، برعت في جعلها، بوقاً، بامتياز، وهذا ما ضاعف حجم المأساة، بعيداً عن أي شبه مع غيرها من المؤسسات، فهي كوسيلة إعلام، مركز لصناعة الرأي العام، ومرجعية لفئات كثيرة من المواطنين، قد يقول البعض، أن وسيلة إعلام ببغائية، لا تعنينا في شيء، إن لم تكن شريكاً في قتلنا!!، والحق أن كل مؤسسة في سورية، تعنينا، وتحديداً وسائل الإعلام، فلها ثقلها الخاص ودورها الهام، وما يجري فيها من فساد واعتداءات على حرية الصحافة كمهنة، وما تنشره من أكاذيب وادعاءات، يعنينا، أما أن تكون رئيس التحرير، وجهاً لرجل أمن، فهي مصيبة حقيقية، ستذكرها الصحافة السورية والعربية طويلاً.

بالطبع، تلك الجريدة، جزء من حالة إعلامية أوسع، لا تنفصل عن وزارة الإعلام، وأقطابها، ولا يظن أحد، أن ما يجري في مكاتبها وممراتها، سرٌ خفي، لا أبداً، ما يجري هناك، معلوم لدى الجميع، من صحفيين ومعنيين داخلها وخارجها، للأسف، غدت إحدى أعرق الصحف السورية، ورقة لعب بأيدي شخصيات دنيئة، خرّجتها المخابرات، ودعمتها بثينة شعبان المستشارة الاعلامية للأسد، ووزير الإعلام عمران الزعبي، حتى ضاق صحفيوها ذرعاً بها، وغدت ساعات العمل، كابوساً حقيقياً، بعد أن كانت زياراتها حلماً راود الشباب أصحاب الأقلام والأحلام، هل عرفتم من هي تلك الجريدة؟؟!!!.

دماء ودموع

كان الوقت منتصف الليل، أو يزيد..

أما المكان فهو قرية آمنة وادعة في أطراف الريف السوري في عشرينيات، أو ثلاثينيات القرن العشرين..

السكان في بيوتهم، بعض رجال مع زوجاتهم، وآخرون نائمون، فيما الرجل الطموح، والغريب عن القرية، يحدث زوجته عن مشاريعه الهامة، وفجأةً يغير البدو على القرية بأسلحتهم النارية، ليسلبوا كل ما يقع تحت أيديهم، كانت ''الغزوات'' شيئًا مألوفًا في ذلك الزمان، على الصعيد العام أصيبت القرية بنكبة جامعة، فقد خسر الفلاحون مدخراتهم، ومواشيهم، ومحاصيلهم المخزنة، ولم ينجو إلا ذاك الغريب الذي احتال على البدو بمكر، سيؤهله لاحقًا ليصبح ''مختار'' القرية وزعيمها.

لكن هناك نكبة خاصة أصابت أبًا، وابنته تحديدًا، فعندما وقعت الغارة، كان الأب نائمًا، أما البنت فكانت على موعد غرامي مع أحد الشبان، كانا في مخزن العلف، وكانا يتبادلان مشاعر الحب، ويتفقان على الزواج، لكن الغارة فضحت أمرهما.

في الصباح اختلفت الصورة، أهل القرية المنهمكون في إصلاح ما خربه البدو، وإحصاء ما وقع من خسائر، فوجئوا رؤية الأب جارًا حماره، برأس منكوس، وعقاله على رقبته، وخلف الحمار تمشي البنت مكبلةً بحبل مربوط بـ''السرج''، لا شك أن تقاسيم وجه ''يوسف حنا'' الحزينة، الذي لعب دور الأب، ودموع ''فاديا خطاب'' التي اشتهرت بأداء أدوار الشابة المظلومة، قد أضافت للمشهد بؤسًا دراميًا ساحرًا، دفعت المشاهدين جميعًا للتعاطف مع العائلة المنكوبة.

كان ذلك في مسلسل ''هجرة القلوب إلى القلوب'' للكاتب السوري الراحل ''عبد النبي حجازي''، عندما عُرض المسلسل كان عمري أقل من عشرة سنوات، في ذلك الوقت لم أفهم لماذا أقدم الأب على تكبيل ابنته، والخروج بها من القرية، لاحقًا عرفت أن الأب كان يسوق ابنته إلى البرية، لذبحها، ودفنها، كما ينبغي بأي رجل ''حقيقي'' ''تلطخت'' سمعته، و''تلوث'' شرفه أن يفعل، وكان مضطرًا لذاك ''التطهر'' بصورة علنية، حتى يعلم الجميع أن شرف الرجل عاد نظيفًا.

بدا الرجل مستسلمًا، مسلوب الإرادة، ومنعدم الخيار، إلا أن الأب المكرَه، لم يكن مقتنعًا بما تفرضه العادات والتقاليد من قيم وسلوكيات صارمة، وكان يعلم أن ابنته لم تفعل شيئًا يستحق الموت، بدا مستسلمًا، إلا أنه وفي النهاية كان رجلًا حقيقيًا كما ينبغي فعلًا، عندما جلست البنت عند قدميه متوسلةً، رق قلبه، فألقى بالأعراف والتقاليد وراءه، واختار أن يبقى إنسانًا، وأبًا، فك قيود ابنته، ومضى معها إلى المدينة، ليستقرا في مكان يعج بالغرباء اللامبالين، والذين يحتمل أن يكون بينهم مَن فر من قصص، وحكايات مماثلة.

الكاتب الراحل ''عبد النبي حجازي'' ابن مدينة ''جيرود''، التابعة لريف دمشق، والواقعة على تخوم البادية السورية، وقد أخبرني صديق من مدينته، أن ''حجازي'' استقى الكثير من مواضيع مسلسلاته، من قصص حقيقة رآها، أو سمع عنها من كبار السن، وهو ما يعني أن بعض محاور مسلسلاته، ـ كمشهد الأب وابنته المذكور أعلاه ـ يحوز قيمةً توثيقيةً، وتأريخية فيما يخص بعض العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة، وهو ما يعني أيضًا أن أبطال تلك القصص هم في الغالب أشخاص حقيقيون، وجدوا فعليًا في يوم ما.

ومدينة ''جيرود'' اليوم تسيطر عليها جبهة النصرة، وجرت فيها عدة اشتباكات مع قوات النظام، وهي عانت قبل الثورة من الاضطهاد، واعتُقل الكثير من شبابها، لا سيما خلال عقد الثمانينيات، وبعد العام 2003، بعد توجه العديد منهم إلى العراق.

وجبهة النصرة كانت قد حاولت في بداية سيطرتها على بعض المناطق، تنفيذ شيء من أفكارها، ومشروعها المتعلق بـ''الحكم الإسلامي''، من تطبيق للحدود، وما شابهها، وكانت تطلب من الراغبين بالقتال في صفوفها، حفظ شيء من القرآن الكريم، والمحافظة على الصلاة، وإطلاق اللحية، والإقلاع عن التدخين، وكانت تطلب منهم أيضًا بيعةً خاصةً بالقتال، دون البيعة العامة التي اشترطتها على الراغبين بالانتساب إليها.

وقد عَدَلَت ''الجبهة'' بعد فترة عن ذلك، وخصوصًا تطبيق الحدود الإسلامية في مناطق حكمها، وأصبحت هيئاتها الشرعية تقصر صلاحياتها الرقابية، والعقابية على المذنبين من المقاتلين في صفوفها، دون سواهم من المقاتلين، والمدنيين، وتركت أمور القضاء العام للهيئات الشرعية المشتركة مع ألوية الجيش الحر، أو فصائل الجبهة الإسلامية، وقد يكون سبب العدول، ما لاحظته ''النصرة'' من امتعاض أبداه الناس من سيرتها الأولى، كما أنها أخذت بعين الاعتبار ما سمعته من انتقادات داخلية، وخارجية، وما قد وقع لديها

من مراجعات داخلية للفكر، والمنهج الذي تعتنقه، واجتهادها الخاص بفقه الأولويات، حيث تتقدم مرحلة قتال النظام، وإسقاطه، على مرحلة إقامة الدولة، أو ربما خضوعها لضغوطات من قبل بعض الداعمين، والمناصرين الخارجيين، ولا شك أن لتغير التركيبة البشرية ل"النصرة" بمغادرة الكثير من منتسبيها الأجانب، ليقتصر مكونها الرئيس على السوريين أثره الواضح في ذلك.

وربما يكون السبب أخيرًا محاولتها التمايز عن تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" الصاعد في حينه، واستشعارها لاقتراب المواجهة الحتمية معه، فكان سعيها لاسترجاع حواضنها الشعبية، كما إدراكها لتغير بعض توجهات السياسات الدولية فيما يخص محاربة "الإرهاب"، وهي طالبت برفع اسمها عن قوائم الإرهاب الدولي، وقد تكون مراهنتها على واقعية سياسات الولايات المتحدة، وبراغماتيتها، وهي التي بدأت قبل أيام تزود الجناح السوري لحزب العمال الكردستاني "بي كي كي" المسجل على لائحة الإرهاب الأمريكية منذ عام 1997، بالأسلحة، والذخائر في مدينة "كوباني"، وبكل الأحوال لا يُعرف حقيقةً مدى عمق، وجذرية التغييرات التي حدثت في فكر، وسلوك "النصرة"، ولا إن كانت تكتيكية، ومؤقتة، أم استراتيجية، ودائمة، ولا كيف سينتهي بها الحال.

أما تنظيم "الدولة" فهو في وادٍ آخر، فأولويته الوحيدة هو إقامة "الخلافة" وتثبيت أركانها، ولا يبدو حاليًا أنه في وارد إجراء أي نوع من المراجعات، أو النقد، ويزداد في عنفه وتطرفه ضد البيئات المحلية، مع ارتفاع وتيرة الحرب الدولية ضده، ويبدو أنه لا يعرف طريقًا لبناء دولته إلا من بوابة الرعب.

في عام الرمادة أوقف عمر بن الخطاب العمل بحد بسرقة، كان من شأن استمرار العمل به، أن يؤدي إلى مفاسد أكبر، وعمر رضي الله عنه أحد أعظم رجال الدولة في التاريخ، عرف أن حياة الإنسان، ووجوده أولى، وأهم من الأنظمة، والتشريعات.

ترفض "داعش" الاقتداء بعمر، وتصر على تنفيذ الحدود على شعب يعيش ظروفًا أشد مما عاشه المسلمون في الرمادة، ولا يهمها تأسيس شرعية، طالما بإمكانها تحقيق مشروعها بالقوة.

قبل أيام استعاد التنظيم محاكاةً، واقعيةً، ودمويةً للوحة الأب، والابنة البائسين من مسلسل "حجازي"، في النسخة "الداعشية"، لم يكن الأب إنسانًا، كان حجرًا، وسكينًا، وأداةً إعلاميةً، أيدلوجيةً، يستغلها التنظيم لبث الخوف، ونشر الرعب، مشهد الأب كان استعادةً أيضًا، لمشاهد آباء خائفين، أو متملقين تحلقوا حول "صدام"، و"حافظ"، و"معمر" وهتفوا بذل لفداء القتلة بدمائهم، وأرواحهم، وأبنائهم.

تحسب "داعش" أن دماء الفتاة قربان واجب لقيام "الدولة"، لكن يفوتها أن الدولة التي تبنى بالدماء، والجماجم تنهار بسرعة، ويكون انهيارها بالدماء والجماجم أيضًا.

كاريكاتير العدد